الفصل الاول

قيام الدولة وتأسيسها

سادت الفوضى اقليم فارس في بداية القرن الثالث الميلادي واضمحلت قوة الاشكانيين في ذلك الوقت ويبدو أن كل بلد ذي اهمية حتى وان كانت قليلة كان له مليكه الخاص. وكان اهم هذه الامارات امارة مدينة اصطخر عاصمة ملوك فارس القدماء التي كانت بيد اسرة من البرزنجيين كما كانت هناك اسرات صغيرة تتواجد في نواحي دارابجرد وغيرها من اقليم فارس والتي لم يستطع الطبري ضبط اسماء مثل هذه النواحي (١) الا انه استطاع ان ينقل من مصادر موثوقة بها بأن ساسان كان الكاهن الأعلى لبيت النار الخاص بالالهة (اناهيتا) في مدينة اصطخر. وهو رجل من عائلة نبيلة ومتزوج من فتاة من بيت البارزنجين. وقد استفاد ابنه بابك الذي خلفه في وظيفته من صلته ببيت البارزنجين الكبيرة الحاكمة في اصطخر فنصب واحداً من اولاده الصغار المدعو (اردشير) في الوظيفة العسكرية الكبرى. على مدينة دارابجرد. وابتداءً من سنة ٢١٢ م او حوالي هذا التاريخ اصبح اردشير سيداً على كثير من مدن هذا الاقليم وذلك بالقضاء على حكامها بينما ثار بابك على قريبة الملك جوتجهر بمهمة في مقره في القصر الابيض بمدينة اصطخر ثم قتله وولي مكانه (٢).

---

(١) انظر التاريخ ١ / ٨١٥.

(٢) كرستنسن ــ ايران ٧٣ ــ ٧٤، خطاب ــ قادة فتح ص ١٦. وانظر باقر ــ ايران ص ١١.

ومن الجدير بالذكر هنا ان امراء اقاليم فارس الذي كانت مركزه مدينة اصطخر كانوا يتلقبون بلقب (شاه) اي معناه الملك منذ البدايات الأولى للقرن الثاني ق. م وهو لقب اخذ يحل محل (الحاكم) مما يشير الى تطور سياسي واضح لصالح هذا الاقليم على حساب الدولة السلوقية والفرثية الحاكمة في ايران. وعلى الرغم من وجود امارات صغيرة تتوزع في اقليم فارس، لكن مدينة اصطخر كانت امارتها اكبرها واهمها. ومثلما كانت هذه المدينة عاصمة ملوك ايران القدماء من الاخمينيين، قدر لها ثانية ان تلعب دوراً خطراً في احداث التاريخ الايراني والشرق القديم من عهد الساسانيين (٣) والظاهر ان اردشير كان قد تطلع الى ارتقاء العرش في مملكة فارس. وصادف في تلكم الاثناء ان توفي بابك بعد ذلك بقليل، فارتقى ولده سابور عرش فارس. الا ان الحرب قد اشتعلت بينه وبين اخيه اردشير. ولكن سابور توفي فجأة، فمنح اخوة اردشير الآخرون التاج له، ولكنه قتلهم بعد ذلك خشية ان يخونوه. وبعد ان اخمد اردشير ثورة في داراجرد عمل على تثبيت سلطانه بغزو اقليم كرمان المجاور فاسر ملكه كما غزا سواحل الخليج العربي فسقط بسيف الغازي (٤). فلما اصبح سيداً « الاقليم فارس كله وكرمان التي هي حده الجغرافي امر ببناه قصر ومعبد نار في (فيروز آباد) ونصب أبناً » له اسمه اردشير ايضاً « حاكماً » على كرمان.

واخيراً نشبت الحرب بين المغتصب اردشير وكبير ملوك الاشكانيين، وهذا الاصطدام كان متوقعاً حيث اراد اردشير ان يوسع دائرة سلطانه السياسي، ولدعم قواه العسكرية والمادية للمعركة الفاصلة مع الفرثيين. وحيث اصدر ملك الاشكانيين امره الى ملك الاحواز ان يذهب لقتال اردشير وان يحمله مصفداً بالاغلال الى المدائن. ولكن اردشير نفسه بعد ان هزم ملك اصفهان اتجه لقتال ملك الاحواز فغلبه في معركة حاسمة واستولى على ولايته. ثم اخضع اردشير ولاية ميسان (٥) التي كان يحكمها العرب الوافدين من عمان والجزيرة العربية سابقين في ذلك القبائل العربية التي وفدت فاستقرت في الحيرة غرب الفرات في نفس الوقت الذي قامت فيه الدولة الساسانية (٦).

---

(٣) باقر ــ ايران ص ١١١.

(٤) كرستنسن ــ ايران ص ٧٤ ــ ٧٥ خطاب ــ قادة فتح ص ١٦.

(٥) ولاية ميسان: ولاية صغيرة كانت تقع عند مصب دجلة في الخليج العربي كرستنسن ــ ايران ص ٧٥. ياقوت ــ البلدان مادة ميسان.

(٦) ن. م. باقر ــ ايران ص ١١٢.

واخيراً نشبت المعركة الكبرى بين اردشير وجيش الاشكانيين الذي قاده ملك الملوك نفسه الذي سقط في تلك المعركة قتلاً بيد اردشير. وبعد هذه المعركة التي حدثت في نيسان ٢٢٤ م دخل اردشير المدائن عاصمة الدولة الاشكانية دخول الظافر معتبراً نفسه وارث الاشكانيين وتلقب ابتداء من هذا التاريخ بلقب (شاهنشاه) ملك الملوك (٧).

ويروي ان اردشير تزوج بعد ذلك من عائلة الاشكانيين فانجبت له ابنه شابور. بينما يروي باحثون آخرون ان شابور كان فتى يافعاً عندما حارب اردشير ملك الفرثيين ومهما يكن من امر ولادة شابور الواضح ان اردشير قصد بزواجه من البيت الاشكاني اكتساب حكمه الشرعية اللازمة في وراثة الفرثيين (٨) كما يبدو ان الانتصارات الباهرة التي تحققت لاردشير لم تكن كافية لخلق دولة كبيرة متماسكة كان يطمح لاقامتها. خاصة وان النظام اللامركزي التي كانت عليه الدولة الفرثية لايعترف بخضوع الاقاليم والولايات العديدة التابعة لاردشير اثر انتصاره على المدائن العاصمة. لذلك سار نحو اقليم بلاد ايران المتعددة ليفرض سيطرته ولينتزع ولائها للعهد الجديد (٩).

وفي السنين التالية اخضع ميديا ومعها همدان (١٠) ثم واصل زحفه شمالاً صوب اذربيجان وارمينية (١١) ثم تحرك صوب الموصل ومنها الى السودان وبعدها الى اصطخر ثم بدا بحملة واسعة صوب الاقسام الجنوبية والشرقية لايران ففتح سجستان وخراسان ومرو وبلخ وخوارزم (١٢) الا انه لم يستطيع اخضاع (الحضر) (١٣)

---

(٧) كرستنسن ــ ايران ص ٧٥ ــ ٧٦، باقر ــ ايران ص ١١٣.

(٨) ان قصة زواج اردشير بالسيدة الاشكانية التي ذكرها الطبري في تاريخ سابور قد اخذت من بعض الخرافات الشعبية، كرستنسن ــ ايران ص ٧٦.

(٩) باقر ــ ايران ص ١١٣.

(١٠) ميديا: اسم قديم يطلق على الجزء الشمالي من ايران وهو يتفق في الوقت الحاضر مع مقاطعة اذربيجان وارولان والعراق العجمي وبعض اجزاء كردستان. ياقوت ــ البلدان ــ مادة ميديا.

(١١) ارمينيا: اسم صقع واسع من برذعه الى باب الابواب والى بلاد الروم. وقبل ارمينية الكبرى خلاط ونواحيها، وارمينية الصغرى تفليس ونواحيها. ياقوت ــ البلدان مادة ارمينية. ابو الفداء ــ التقويم ص ٣٨٧.

(١٢) للتعرف على هذه البلدان والاقليم انظر الفصل الاول من الباب الاول.

(١٣) الحضر: اسم مدينة بازاء تكريت في البريه بينها وبين الموصل والفرات. انظر ترجمتها في ياقوت ــ البلدان مادة (الحضر).

لسطانه فكان حصاره لها قد ذهب عبثاً. وعلى اثر الانتصارات التي احرزها اردشير وتوسعاته العسكرية وردته رسل من ملك كوشان (كابل والبنجاب) وملك مكران تعترف بسلطانه وتذعن لطاعته فبلغت دولة اردشير حدوداً شاسعة وضمت الى نفوذها ايضاً افغانستان وبلوخستان واقليم جرجان ومرو الى حدود نهر جيحون شمالاً وبابل والعراق غرباً. وقد حمل افراد الاسرة الملكية الذين توارثوا خراسان (ولاية الشرق) لقب (ملوك الكوشين كوشان شاه) (١٤).

ومن المحتمل ان يكون اردشير قد توج ملكاً لملوك ايران (شاهنشاه) بعد استيلائه على المدائن بزمن قليل وليس بعد سيطرته على اقاليم بلاد ايران (١٥).

كان اردشير في اعماله جميعاً يقتني اثار عظماء الملوك الاخمينيين فهو يعد نفسه وارثاً شرعياً لحكمهم وفي خطواته هذه يعيد الحكم الى اهله الشرعيين (١٦).

وتروي المصادر العربية ان اردشير لم يكتف باقامة دولة مترامية الاطراف وانما اكمل دستور الملوك ورتب المراتب واحكم السير ونفذ الامور بنفسه وبنى من المدن ست مدائن منها بأرض فارس مدينة اردشير خسرو ومدينة رام اردشير ومدينة استاد اردشير وهي كرخ ميسان ومدينة بالبحرين واخرى بالموصل وكان للملوك الساسانيين الاوائل ومنهم اردشير اهتمام طبيعي باقليم فارس لانه مسقط رأسهم وموطن اجدادهم الاخمينيين لذلك اتخذوا من الاقسام الصخرية في ضواحي مدينة اصطخر لتخليد ذكراهم في كتابات ورسوم تذكارية ويعرف هذا المكان (نقش رجب) والاخر (نقش رستم) القريب من مقابر الاخمينيين في المنطقة ذاتها.

اخلد اردشير الى الراحه في اواخر ايامه ونقل العرش الى ابنه شابور على عهده بعد ان عاد للفرس سلطانهم الغابر في ايام الامبراطورية الاخمينية. فقد قامت في الشرق بعد مضي خمسة قرون تقريباً على سقوط الدولة الاخمينية دولة قوية معظمه الاركان سادت على قدم المساواة مع الامبراطورية الرومانية (١٧).

---

(١٤) باقر ــ ايران ص ١١٣، كرستنسن ــ ايران ص ٧٧.

(١٥) ن. م وانظر خطاب ــ قادة فتح ص ١٧ ــ ١٨.

(١٦) باقر ــ ايران ص ١١٤.

(١٧) كرستنسن ــ ايران ص ٨٤ ومابعدها. باقر ــ ايران ص ١١٤ ــ ١١٥.

ولم يعد اقليم فارس وعاصمته اصطخر صالحين لاقامة الشاهنشاه. فقد صارت بلاد مابين النهرين المركز الرئيس للامبراطورية الشرقية تبعاً لضرورة التطور التاريخي. وانتقل دور بابل السياسي الى المدائن العاصمة الجديدة.

ولم يلغ الساسانيون التراث الفرثي وانما سايروه وطوروه نحو الأفضل. فقد استخدم الملوك الساسانيون اللغة البهلوية الاشكانية بجانب البهلوية الساسانية في تسجيل نصوصهم التذكارية ولكن الدولة الساسانية الجديدة لم تكن صورة مستمرة للدولة الفرثية السابقة، كما لم يكن حدث قيامها سياسياً فحسب انما يتميز بظهور روح جديدة في ايران أبرزها واهم مايتميز تنظيمها الاداري ووحدة الاقاليم السياسية. وثانيهما توحيد البلاد تحت لواء دين رسمي للدولة. وقد انعكس اثر هذين العاملين بوضوح في الحياة العامة.

للمجتمع الايراني واستمر تأثيره سارياً حتى نهاية عهد الدولة الساسانية وكانت شخصية اردشير والظروف المواتية سبباً في قوة هذه الدولة الغنية التي ارسيت لها قواعد من الادارة والنظام مكنتها من الاستمرار لاكثر من اربعة قرون من الزمن. فبعد ان فرغ من توطيد دعائم الدولة توجه الى تنظيم شؤونها الداخلية متخذاً من الخطوات التي كفل وحدة الدولة وقدرتها على النمو والازدهار فاعاد الزرادشتية ديناً رسمياً، وامر بجمع تعاليم زرادشت في مجلد واحد كما جمعت تفاسيره المعروفة بأسم (الزند) وجعل له تفسيراً عرف باسم (بازند) ومنح رجال الدين صلاحيات واسعة ومعززاً من دورهم ومكانتهم في الحياة الجديدة للدولة. حيث كان اردشير يعتقد بأن الملك والدين اخوان توأمان لاقوام لاحدهما الا بصاحبه. لان الدين اساس الملك وعماده (١٨).

كذلك اولى اردشير العلوم والمعارف اهتمامه الزائد. وامر بالحصول على نسخ الكتب الطبية والفلكية وانفق كثيراً لاجلها. كما اهتم بالجيش وتنظيمه وامر للجند بالارزاق والمراتب الشهيرة وتابع اردشير التنظيمات الادارية بشكل مباشر وكانت له عيون على سائر موظفيه وقسم الناس الى اربع طبقات (١) الاساورة (رجال الحرب) (٢) رجال الدين (٣) الكتاب والاطباء (٤) الزراع واصحاب المهن. ورسم حدوداً صارمة لكل من هذه الطبقات وعبر عن مخاوف من انتقال

---

(١٨) باقر ــ ايران ص ١١٥. خطاب ــ قادة الفتح ص ١٨.

الناس من طبقة لاخرى لانه رأى في ذلك فشل الملك. وقد استخدم اردشير الحزم والشدة في تنفيذ هذه التنظيمات الاجتماعية. كما ابتدع مراسم الحياة الملكية لايحق لاي شخص بتقليدها (١٩) ومن الرجال البارزين في عهد اردشير تنسر (Tinsair) كبير رجال الدين الزرادشتي. الذي آزر الملك وبث له الدعاية في ارجاء البلاد وكتب رسائل كثيرة يشير بها الى افكار اردشير وقد بثها له الدعاة بين الناس. ويعد كتاب تنسر مصدراً رئيساً لدراسة احوال الدولة والمجتمع الساساني (٢٠).

في حدود عهد أردشير قامت امارة عربية جديدة غرب الفرات في حدود الكوفة (*) هي الحيرة وكانت تابعه للنفوذ السياسي الساساني واعتمدها الساسانيون حصناً متيناً بوجه القبائل العربية من سكان البراري وفي وقت مقارب ظهرت مملكة عربية في شمال البادية الشامية عرفت بدولة الغساسنة كانت موالية لليونان (٢١).

ومن ابرز المعالم السياسية للوحدة القويه للدولة الساسانية ظهور لقب ملك الملوك (شاهنشاه) حيث كان امراء فارس الساسانيون يحملون لقب ملك. لذلك اصبح حرياً بملك ايران جميعاً ان يحمل لقب ملك الملوك. بينما بقي لقب ملك تمنح لبعض الامراء الذين يحكمون اطراف الدولة مثل ملوك الحيرة فالملك فيهم وفي ولدهم مع كثير من الامتيازات للحكم المحلي الذي كان سائداً منذ ايام الاشكانيين. ولكن الملوك المحليين على عهد الدولة الساسانية يكونون ملزمين بوضع قواتهم العسكرية في خدمة الدولة المركزية ويدفعون ضريبة سنوية للخزينة المركزية (٢٢).

عهد شابور الاول

ورث شابور دولة مترامية الاطراف قوية البنيا، قامت على انقضاض دولة الفرثيين واماراتهم. يبدو ان ظهور الدولة السا نية ونجاحها السريع في تركيز قدرتها

(١٩) ن. م وقد اعتمد على د. احسان عباس: عهد اردشير. بيروت ١٩٦٧.

(٢٠) لقد اورد رسالة تنسر هذه المؤرخ ابن اسفنديار في تاريخه عن طبرستان وبين اهميتها السياسية والدينية ص ٤٢.

(٢١) باقر — ايران ص ١١٥:

(٢٢) ن. م ص ١١٥ — ١١٦.

(*) لم تكن الكوفه قد بنيت بعد وهي مدينة اسسها العرب والمقصود هنا المنطقة الجغرافية.